من كتاب ديارات بغداد :

الديارات وملحقاتها ...

للأستاذ شكرى محمود أحمد

الدير بيت يتعبد فيه الرهبان ، ويكون بين الرياض والحدائق فى ظواهر المدن والأمصار ، أو فى المواضع البعيدة عن الناس كالصحارى والمستشرفات ورءوس الجبال .

وقد أخطأ ياقوت فى الكلام على الدير والتعريف به فى كتاب معجم البلدان بقوله : « ولا يكاد يكون بالمصر الأعظم ، إنما فى الصحارى ورءوس الجبال[1] » . فإننا وجدنا أديرة كثيرة فى ظواهر المدن ، فقطربل مثلا وهى ملاصقة لبغداد فيها دير أشمونى ، قال الشابشتى : « وعيده اليوم الثالث من تشرين الأول[2] ، وهو من الأيام العظيمة ببغداد ، يجتمع أهلها إليه كاجتماعهم إلى بعض أعيادهم ، ولا يبقى أحد من أهل التطرب واللعب إلا خرج إليه ... ويباهون بما يعدون لقصفهم ، ويعمرون شطه وأكنافه ، وديره وحاناته ...[3] » ، وفى قطربل أيضاً دير آخر اسمه دير « الجرجون » ذكره الشابشتى فى الكلام على دير أشمونى .

وقد أحصيت الأديرة التى كانت ملاصقة لبغداد أو قريبة منها فوجدتها تقرب من العشرين ديراً ، وربما كانت أكثر من هذا ؛ أما الأديرة التى حول الحيرة أو قريبة منها فما كثر من عشرين ديراً . وهذا ينقض زعم ياقوت بأن الدير لا يكون فى المصر الأعظم ، وإذا استقصينا الشواهد على نقضه ضاق بنا المجال .

وربما كان قول المقريزى فى التعريف بالدير أقرب إلى الصواب ، فقد قال : « الدير عند النصارى يختص بالنساك المقيمين به ، والكنيسة مجمع عامتهم[4] »

أما قول الفيروز ابادى فى الدير ، والتعريف به فقلق جداً لا يدل على اطلاع فى هذا الموضوع ، فقد قال : « الدير خان النصارى وجمعه أديار[1] » ، والخان يطلق على كل موضع يقام به فى سفر أو غيره .

وقد جاء فى الشعر العربى إشارات كثيرة إلى مواضع الأديرة التى تكون على سفوح الجبال أو فى السهول والرياض . قال أبو الحسين بن أبى البغل الشاعر فى دير الأعلى بالموصل ، وقد اجتاز به يريد بلاد الشام[2] :

انظر إلىّ بأعلى الدير مشترفاً ... لا يبلغ الطرف فى أرجائه طرفا
كأنما غربت غر السحاب به ... فجاء مختلفاً يلقاك مؤتلفا
فلست تبصر إلا جدولا سربا ، ... أو جنة سدفاً ، أو روضة أنفا

وربما كان هذا الدير «دير الأعلى» أكثر الأديرة ارتفاعاً . قال العمرى : « وله درجة منقورة فى الجبل تفضى إلى دجلة نحو المائة مرقاة[3] » .

وقال ربيعة الضبى يصف إحدى الحسان :

لو أنها عرضت لأشمط راهب ... فى رأس مشرفة الذرى متبتل
جار ساعات النيام لربه ... حتى تخدر لحمه متشمل
لصبا لبهجتها وحسن حديثها ، ... ولهمّ من ناقوسه بتنزل[4]

ومما جاء فى وصف موضع الدير الذى يكون بين الحدائق والرياض تحف به البساتين والحقول قول ابن المعتز فى دير عبدون :

سقى المطيرة ذات الظل والشجر ... ودير عبدون هطالٌ من المطر
يا طالما نبهتنى للصبوح به ... فى ظلمة الليل والعصفور لم يطر
أصوات رهبان دير فى صلاتهم ... سود المدارع ، نعّارين فى السحر[5]

وقال جحظة البرمكى فى دير أشمونى بقطربل، وقد خرج إليه فى عيد من أعياده ، فلما وصل إلى الشط ، مدّ عينيه لينظر موضعاً خالياً يصمد إليه ، أو قوماً ظرافاً ينزل عليهم ، فرأى فتياناً من أحسن الناس وجوهاً ، وأنظفهم لباساً ، وأظرفهم آلة ، فصمد إليهم وصاح بغلامه : « يا غلام طنبورى ونبيذى ، فقالوا : أما

(١) ياقوت ج ٤ ص ١١٩ . (٢) هو الإسم العربى لا كتوبر
(٣) الشابشتى ورقة ١٨ .
(٤) الخطط ج ٣ ص ٤٠٩ .

(١) القاموس المحيط مادة دير .
(٢) ياقوت ج ٤ ص ١٢٤ .
(٣) مسالك الأبصار للعمرى ص ٣٤٠ ، ٣٤١ .
(٤) الأغانى طبعة بولاق ج ١٩ ص ٩٣ .
(٥) ياقوت ج ٤ ص ١٥٥ .

الطنبور فنم ، وأما النبيذ فلا ، فجلست مع أحسن الناس أخلاقاً وأملحهم عشرة ، وأخذنا فى أمرنا ، ثم تناولت الطنبور وغنيت شعراً لى :

ســـقياً لأشمونى ولذاتها والعيش فيما بين جنـــاتها
ســـقياً لأيام مضت لى بها ما بين شطيها وحاناتهـــا
إذ اصطباحى فى بـاتيها وإذ غبوقى فى دياراتها[1]

وعلى ذكر أشمونى وخبر جحظة البرمكى وشعره فيه ، يجمل بنا أن نذكر هذه القطعة البارعة لأبى الشبل البرجمى فيه ، وهو كصاحبه جحظة من « عصابة السوء » النواسية :

شهدت مواطن اللذات طراً وجبتُ بقاعها بحراً وبرا
فلم أر مثـــل أشمونى محلاً ألذّ لحاضريه ولا أسرا
به جيشان من خيل وسفن أناخا فى ذراهُ واستقرا
كأنهما زحوف وغىً ولكن إلى اللذات قد كرا وفرا
سلاحهما القواقز والقنانى وأكواس تدور هلم جرا
وضربهما المثالث والمثـــانى
إذا ما الضرب فى الحرب استحرا
وأسرها ظباء الدير « طوعاً »
إذا أسد الحروب أسرن قسرا[2]

فالدير إذن يكون على قمم الجبال وسفوحها ، وفى السهول بين الرياض والجنائن ملاصقاً للمدن أو بعيداً عنها فى الصحارى والمواضع المنقطعة عن الناس .

ويسمى الدير أحياناً بالعُمْر وجمعه أعمار قال صاحب تاج العروس فى العمر : « والعمر بالضم المسجد والبيعة والكنيسة ، سميت باسم المصدر لأنه يعمر فيها أى يعبد »[3] .

وقد فرق صاحب مراصد الاطلاع بين الدير والعمر ، فخص ما كان منهما قريباً من المدن والعمران بالعمر وما كان بعيداً عنهما بالدير ، وذلك فى قوله : « ... وما كان من مواضع المتعبدات التى فيها مساكن الرهبان بقرب العمران فإنه يسمى العمر »[4] .

وقد مرت هذه اللفظة فى شعر الفتاك والماجنين الذين كانوا يألفون الديارات ويتطارحون فيها . قال أبو نواس :

أذنك الناقوس فى الفجر وغرد الراهب فى العمر
وحنّ مخمور إلى خمـــرة وجاءك الغيث على قـــدر
يا حبذا الصحبة فى العمر وحبـذا نيسان[1] من شهر
يا عاقد الزنار فى الخصر بحرمة الحـــانة والقهر
هات التى تعرف وجدى بها واكن بما شئت عن الخمر
يا حبذا الجهر بأمر الصبا ما كنت من ربك فى ستر[2]

وقد أرجع حبيب زيات هذه اللفظة « العمر » إلى أصل أرامى بمعنى البيت والمنزل .

ملحقات الدير :

تشتمل الأديرة على الكنيسة والهيكل ، والقلالى وبيوت المائدة ، ومستودعات الخمور ، والبساتين ومعاصر الكروم والحانات ودور الضيافة ، وحجر الرهبان ، وحجرة لرئيس الدير الذى يشرف على تنظيمه .

ويحف بالدير أحياناً بنايات مرتفعة يسكن كل واحدة منها راهب يقال لها القلالى أو القليات ، ومفردها على الأول قلية ، وعلى الثانى قلاية ، ومعناها الصومعة ، وقد تكون هذه القلالى فى داخل الدير خلف سوره .

وربما كانت هذه اللفظة « قلية » فى الأصل خلية ، وجمعها خلايا لأنها تشبه الخلايا فى شكلها وانتظامها حول الدير .

وقد أخبرنى بعض الأفاضل أن أصل هذه اللفظة يونانى ؛ وهى فى اللغة الأرمنية قليثه .

وقد مرت هذه اللفظة فى شعر العصبة النواسية فى مواضع كثيرة نكتفى بقول الثروانى فى دير بالحيرة عرف بقلاية القس . قال :

خليـــلى من تيم وعجل هديتما
أضيفا بحث الكأس يوما إلى أمسى
وإن أنتما حيتمانى تحيـــة
فلا تعدوا ريحان قلاية القس

(١) الشابشتى ورقة ١٨ ، ١٩ .
(٢) الشابشتى ورقة ١٨ ، ١٩ .
(٣) تاج العروس ج ٣ ص ٤٣ .
(٤) مراصد الاطلاع ج ١ ص ٤٢ .

(١) هو ابريل واسمه فى الشام والعراق نيسان .
(٢) ديوان أبى نواس طبعة آصاف ص ٢٧٦ .

وتنتشر حول الأديرة الحقول والبساتين المعمورة بمختلف الأثمار والأزهار ، وقد كانت الكروم أكثر هذه الزروعات عناية ، وذلك لأن الخمور النصرانية التي كانت تدخر في الأديرة لها شهرة ممتازة يقبل عليها الناس من كل جانب .

واشتهرت الزرفة — وهي قرية ملاصقة لبغداد ، فيها أديرة كثيرة — بالرمان الذي ضرب المثل بجودته حتى قيل الرمان الزرفي . وهذه القرية بين قطربل وبزوغى ، وتبعد عن بغداد ثلاثة فراسخ .

ومن الأثمار التي عني بزراعتها في الأديار الزيتون والنارنج والفستق والبندق واللوز . وكان الرهبان يعنون بزراعة مختلف الزهور كالريحان والآس والزعفران والنرجس والبنفسج يعملون منه التحايا والأكاليل .

وفي الغالب كان الرهبان يعنون بتربية البقر والأغنام للاستفادة من نتاجها لهم ولأضيافهم ، كما كانوا يعنون بتربية النحل للاستفادة من شمعه وعسله .

وكانت الأديرة مزينة بالقناديل والصلبان والدمى ، مصبوغة بالأدهان ، وقد كانت هذه الدمى منقوشة على الحيطان بمختلف الألوان ، ولا حاجة بنا إلى الاستشهاد بالشعر على ذلك لأنها مرت في مواضع كثيرة من الشعر العربي ، حتى أصبح ذكرها من ملتزمات القصيدة — في بعض الأحيان — كذكر الأطلال والدمن والربوع .

في الغالب المشهور أن هذه الأديرة كانت محاطة بالأسوار المرتفعة خوفاً من اللصوص وقطاع الطرق والفتاك . وربما كان لها باب حديد كدير الأسكون[1] بالجزيرة ، أو باب حجر كدير باطا ، ويسمى هذا الدير أيضاً « دير الحمار » وقد كان بين الموصل وتكريت قال ياقوت : « .. وله باب حجر يذكر النصارى أن هذا الباب يفتحه الواحد والاثنان ، فإن تجاوزوا السبعة لم يقدروا على فتحه .. »[2] .

ولكن هذه الأسوار المرتفعة ، والأبواب الحديدية القوية لم تكن تحمي الرهبان والراهبات على كثرة عددهم من اللصوص والفتاك ، فقد أصيبوا كثيراً بالنهب والقتل وهتك الحرم .

وقصة اللصوص في دير العذارى خير شاهد على ذلك ، وخبر الحادث يرويه لنا الجاحظ في كتابه « المعلمين » وهذا الكتاب مفقود ، لكن الخبر ينقله عنه البكري والبلاذري وياقوت والشابشتي والعمري . قال : حدثني ابن فرج الثعلبي أن فتياناً من بني ملاص من ثعلبة ، أرادوا القطع على مال يمر بهم قرب دير العذارى ، فجاءهم من خبرهم أن السلطان قد علم بأمرهم ، وأن الخيل قد أقبلت تريدهم ، فاختفوا في دير العذارى . فلما حصلوا فيه ، سمعوا أصوات حوافر الخيل التي تطلبهم وهي راجعة من الطلب فأمنوا . فقال بعضهم لبعض : ما الذي يمنعكم أن تأخذوا القس وتشدوه وثاقاً ، ثم يخلو كل واحد منكم بواحدة من هذه الأبكار ، فإذا طلع الفجر تفرقنا في البلاد ؟ وكنا جماعة بعدد الأبكار اللواتي كن في حسابنا أبكاراً . ففعلنا ما أجمعنا عليه ، فوجدناهن كلهن ثيبات قد فرغ منهن القس .

وينظم أحد هؤلاء اللصوص قصتهم هذه مع الرواهب قائلا :

ودير العذارى فضوح لهن ... وعند اللصوص حديث عجيب
خلونا بعشرين ديرية ... ونيل الرواهب شيء غريب
إذا هن يرهزن رهز الظراف ... وباب المدينة فج رحيب
وللقس حزن يهيض الفؤاد ... ووجد يدل عليه النحيب[1]

واشتهرت قصة دير العذارى هذه حتى وردت في مواضع مختلفة في الشعر العربي .

وفي أحداث سنة ٤٤٩ هـ (١٠٥٧) يذكر صاحب مرآة الزمان : « فيها صعد عشرون رجلا من الترك إلى دير للنصارى بميافارقين ، فيه أربعمائة راهب ، فذبحوا منهم مائة وعشرين واشترى الباقون نفوسهم بست مكاكي فضة وذهب »[2] .

فالأسوار المرتفعة والأبواب الحديدية التي كانت تحصن الأديرة لم تحافظ على الرهبان والرواهب ، لذلك نجد أكثر هذه الأديرة متجمعة بالقرب من المدن الكبيرة ، والعواصم المزدحمة ، والأمصار المأهولة خوفاً من اللصوص وقطاع الطرق والفتاك .

أما الكرح بالكسر فبيت الراهب ، ويكون أصغر من القلية ، يسكن فيه الراهب إذا قعدت به الحال ولم يستطع الحصول على قلية . وجمع الكرح أكراح ، ويجيء جمعه أيضاً على صيغة التصغير أكيراح . قال ابن منظور في اللسان ج ٣ ص ٤٠٥ هي

(١) ياقوت ج ٤ ص ١٢٣ .
(٢) ياقوت ج ٤ ص ١٢٥ .

(١) معجم ما استعجم ص ٣٧٦ ، وآثار البلاد للقزويني ص ٢٤٨ ، ياقوت ج ٤ ص ١٥٧ .
(٢) حبيب زيات ص ٣٠٠ .

بيوت للرهبان يخرج إليها النصارى فى بعض أعيادهم . ومعنى هذه اللفظة اليونانية الكوخ الصغير .

وأشهر المواضع التى عرفت بالأكيراح هو دير حنة بالحيرة الذى وصفه أبو نواس فى موضعين ، قال :

دع البساتين من ورد وتفاح
واعدل هديت إلى ذات الأكيراح
اعدل إلى نفر دقت شخوصهم من العبادة إلا نضو أشباح
يكررون نواقيساً مرجمة على الزبور بإمساء وإصباح
تنأى بسمعك عن صوت تكرهه
فلست تسمع فيه صوت فلاح
إلا الدراسة للإنجيل فى كتب ذكر المسيح بإبلاج وإفصاح
يا طيبه وعتيق الراح تحفتهم
بكل نوع من الطاسات رحراح
يسقيكها مدمج الخصرين ذو هيف
أخو مدارع صوف فوق أمساح(1)

ويصف فى موضع آخر من شعره رهبانه ورواهبه ، وكيف أصبحوا أنضاء من العبادة :

يا دير حنة من ذات الأكيراح
من يصح عنك فإنى لست بالصاح
رأيت فيك ظباء لا قرون لها يلعبن منا بألباب وأرواح
دع التشاغل باللذات يا صاح من العكوف على الريحان والراح
واعدل إلى فتية ذابت نفوسهم من العبادة نحف الجسم أطلاح
لم يبق فيهم لرائيهم إذا حصلوا خلاف ما خوفوه غير أشباح
تلق بها كل محفو مفارقه من الدهان، عليه سحق أمساح
لا يدلفون إلى ماء بآنية إلا اغترافاً من الغدران بالراح

والغريب أن ناشر مسالك الأبصار يقول إن الأكيراح : بلد نزه كثير البساتين والرياض والمياه(2) .

والصحيح ما أثبتناه من أن الأكيراح هى بيوت صغيرة تشبه القبة يسكنها راهب واحد إذا لم يستطع الحصول على قلية .

(بغداد) شكرى محمود أحمد

مدرس العربية بدار المعلمين الابتدائية

(1) ديوان أبى نواس طبعة آصاف ص ٢٦١ .

(2) مسالك الأبصار ص ٣١٤ .

خواطر مسجوعة :

فلسفة الفـــأس ...

قال صاحبى : هل ذكرت الفأس فى كتابك ، وعطفت عليها بآدابك ؟ قلت : نعم وصفتها ، وأنصفتها . فاسمع أيها الصاحب الرشيد ، ما تريد :

الفأس فى تكوينها لا تزيد ، عن قطعة من حديد ؛ رُكّبت فى غصن تمرد بعد لين ، وتجرد بعد تزيين . هذه فى تكوينها هى الفأس ، أداة البأس ؛ فإن لم يدل صنعها على المهارة ، فإن وراءها روح جبارة ؛ تردّ الشظف إن عدا ، وتصد السغب إن اعتدى ...

رأيت حامل الفأس فى الصباح ، كجندى شاكى السلاح ؛ يُذِل بطش العيش ببطش شديد ، ويفُلّ بأس البؤس ببأس الحديد ؛ فقلت بخ بخ أيها الإنسان ، هكذا العزة تصان ! وبهذا الفأس يتحطم اليأس ! سر فى طريقك غير ملوم فلن يثنيك عن الحرية غشوم ! وواصل الكد فى إعان ، وابحث عن الرزق فى اطمئنان ؛ غير مسحور بكذب الآمال ، ولا مأسور بذهب الأغلال ، فإن فأسك أمضى فى النقمة ، من السيف فى العممة ؛ وأسرع فى الإجابة ، من القلم فى الكتابة ؛ فلو حكمت بأنها أعز من حسام الكمىّ ، وأغلى من يراع العبقرى ، لكنت فى حكمك صائباً ، ولم تك كاذباً !

والفأس فى يدك أيها الزارع ، كالمبضع فى يد الطبيب البارع ؛ لها رهبة السلاح ، وعليها سمة الإصلاح ، تعمل حدها فى الأرض ، فتنشق كتائبها ، وتستأصل آفتها . وتمهد السبيل للماء . وتعد الحقل للنماء ...

وحسب الفأس شرفاً أنها تؤتى نائلها ، وتحمل حاملها ؛ بل تحنو على من يحنو عليها ؛ وتعز من يلتجئ إليها ؛ فترحه من المن ، وتقيه سوء الظن ؛ وتدرّبه بطول الركوع على الخضوع لله ، وتهون عليه ما تعقد من أسباب الحياة !

حامد بدر